الأدب في أسبوع

التقليد

لم أكد أفرغ من قراءة ما تيسر لي أن أقرأه في هذا اليوم وما قبله حتى عاودني الفكر في أصول ما قرأت من كلام الكتّاب والشعراء ، ووقفت أستعيد في نفسي تلك التيارات الكثيرة التي تموج بنفوسهم من تحت اللفظ والعبارة والمعنى والغرض . ولقد ظننت — حين أقدمت على قبول كتابة هذا الباب من الرسالة — أن انبعاثي للكتابة وطول ممارستي لمادتها كفيلان بتهيئة النفس عن بعض ثورتها ، ولكني أخطأت ، فإن أكثر ما حملت نفسي على قراءته يكاد يؤرّث النار كلما خبت، ويعيدها جذعة كلما طفئت، ويدفعني إلى مثل الحريق من الألم والحسرة والغضب للأدب العربي أن يكون إلى مثل هذا الضعف والفساد والقبح مصيرُه وعقباه .

إن أصحاب هذا اللسان العربي والناطقين به قد أصابتهم في عصور متتابعة مصائب الجهل والغفلة والضعف فتحطمت عروش الدولة في بلادهم كلها وعدا عليها كل عاد من ذؤبان الأمم فاستذلوهم وأخذوهم وفتكوا بهم وقضقضوا أوصالهم بالعنف والاستبداد تارة ، وبالرفق والسياسة المتدجّية ، تارة أخرى . ثم جاءت أيام بعثت من تحت الليل جمرات تفرقت ثم اجتمعت ثم استطار شرارها فرى في كل هامدة بعض الحياة، وكذلك ثارت أحلام النائمين بتحاسينها وتخاريجها وفنونها فانتفضوا يطلبون تحقيق أنوار لياليهم في سواد أيامهم ، ولكنهم قاموا وهبوا على غير نظام ولا تدبير ولا تعبئة فانتشرت القوى الجديدة وتمزقت ، فضعفت وأخفقت ، ولم يكن منها ما كان يرجى لها من الغلبة والظفر والسيادة ، وبقي الضعف في هذه الأمم العربية هو عمادها وعماد أعمالها في عصر من القوة الأوربية الطاغية يمتد ويتراحب ويتساح في الأرض كلها متدافعاً متدفقاً لا يقف ولا يفتر

ومن بلاء الأمم الضعيفة بنفسها أن انبعاثها إلى التقليد — تقليد القوى — أشد من انبعاثها لتجديد تاريخها بأسباب القوة التي تدفع في أعصابها عنفوان الحياة. والضعف يجعل محاكاة القوي أصلاً في كل أعماله . فلما فسدت قيادة أصحاب الرأي عند هذه الأمم الضعيفة ، وكان لا بد للمستيقظ من أن يعمل ، كان عمل الأفراد متفرقين منسحباً على أصلين : ضعف أورثهم إياه ضياع كيان الدولة السياسي ، وضعف كرثهم به تفرّق القيادة وشتات الأغراض ، فلا جرم أن يكون كل عمل موسوماً بسمة من ضعف مظاهر بضعف صاحبه ، ولا جرم أن يكون أعظم أعمالنا هو تقليد الناس على الهوى والجهل والدهشة المتصرفة بغير عقل

هذا كل شيء تحت أعيننا وبأيدينا : بيوتنا ، مدارسنا ، بناؤنا ، رجالنا ، نساؤنا ، علمنا ، أدبنا ، فننا ، أخلاقنا ... كل ذلك على الجملة والتفصيل قد وُسم بميسم الضعف والتفرق وانعدام التشاكل بين أجزائه التي يتكون من مجموعها معنى الأمة ، وكلها تقليد قد تفرقت في جمعه أهواء أصحابه من هنا وهنا . والتقليد بطبيعته لا يتناول من الأشياء إلا ظاهرها ، فكل مآخذنا من أجل ذلك ليست إلا مظهراً

هذه المرأة — وهي فن الحياة الذي يشتهي أبداً أن يبدع حتى في الأذى — ما تكاد تراها عندنا إلا دُمْيَة ملفّقة من الحضارات وبدعها ... ثيابها ، زينتها ، حليها ، تطريتها ، شعرها ، تطريف بنانها ، مشيتها ، منطقها ... كل ذلك أجنبي عنها متكلف منتزع من مظاهر غانيات باريس وعابثات هوليوود ، ليس له من جنسها ولا أصلها شبه تنزع إليه ، وأسمجه أنه ملفق لا ينشأ كل تشاكل المصدر الذي اجتلب منه بالتقليد

وهذا الكاتب وهذا الشاعر — وهما فن الحياة الذي يعمل أبداً في تجديد معانيها بالتأثير والبيان — لا تجد فيما يكتب أكثرهم إلا المعاني الميتة التي نقلت من مكانها بالاعتناف والقسر فوضعت في جو غير جوها فاختنقت فمات ما كان حيا من بيانها في الأصل الذي انتزعت منه

وهكذا ... هكذا كل شيء تأخذه العين أو يناله الفكر ، إنما هو دعوى ملفقة وتقليد مستجلب وبلاء من البلاء . ولا نزال مقلدين حتى يستطيع الأحرار — وهم قلة مشردة ضائعة — أن يبسطوا سلطانهم على الحياة الاجتماعية كلها ، ويرد إلى الأحياء بعض القلق الروحي المنيف الذي يدفع الحي إلى الاستقلال بنفسه والاعتداد بشخصيته ، والحرص على تجديد المواريث التي تلقاها

من تاريخه ، ويغامر فى الحضارة الحديثة بروح المجدد لا بضعف المقلد ، فعندئذ ينتزع من الحضارة الأسباب التى تنشأ بقوتها الحضارات ، ولا يكون موقفه منها موقف المسكين الذليل المطرود من المائدة ... ينتظر وفى عينيه الجوع ليتقحم من فتاتها

صورة النفس

عرضت لى مقالة فى مجلة الثقافة عدد (٥٤) عنوانها « الأدب صورة النفس » كتبها الأستاذ « محمد مندور » ، وقد استوقفنى عنوانها قبل أن أقرأها ، لأن هـذه هى الحقيقة التى نقولها ولا نصل فيها إلى حق . وقد تناوى النقاد عليها ومع ذلك فما نظفر من أقوالهم إلا بالمُبهم بعد المُبهم ، ولا نجد لأكثرهم شرحاً لها يفى بعدولها أو يسرها أو يزيل الإبهام عن مسالكها . . . يقول الأستاذ : « وإذن ، فالآثار الأدبية والفنية تطلعنا بغير تحفظ على أسرار واضعيها النفسية بأسلوبها الخاص . . . ونحن نقصد بذلك إلى البحث عن نفس الكاتب والشاعر فى تضاعيف ما يكتب ... وعمل الناقد إذن عمل كشف عن أسرار لا تقع تحت البصر لأول نظرة ، وسبيله إلى ذلك لا يمكن أن يكون إلا حساً باطنياً ترهفه التجارب والمعرفة الطويلة بمختلف النفوس ... » ؛ وكل هذا جيد من القول ، وهو كالشرح على عنوان المقالة . ولكنى رأيت الأستاذ ينظر فى آثار أدبية لأستاذين جليلين هما : أحمد أمين وطه حسين ، وشرع يتكلم عن بعض آثارهما . تكلم عن مقال « فى فيض الخاطر » هو (صديق) فإذا كل الذى قاله وصف يمكن أن يقع على كل كلام، فيقول: « سترى كيف حطم الأستاذ هذا الصديق ، فرده إلى عوامله الأولية ؟ وقد تقاصرت جمله متجاوبة كأنها ذرات مادية نتجت عن هذا التحليل » ... والنتيجة ! والنتيجة أن الأستاذ أحمد أمين أو أسلوبه أسلوب تحليلى ، وفيه قوة عنيفة ! والأستاذ طموح متقلقل فى شتى السبل ، لأنه كتب عن الشمس وعن الليل ، يستقرى ما يجوب فى ظلام الليل ، وما تتدفقه الشمس ؛ ولا يصف جمالها أو وحشته ! وهكذا ، ولا أدرى كيف أستخرج شيئاً من كل الذى كتبه يدل على الذى أراده مما نقلناه آنفاً ؟ ولا كيف عمل هو فى الوصول إلى هذه الأحكام التى دمغ بها الآثار الأدبيـة وأصحابها ؟ ولا كيف كان عمله فى التحليل النفسى الذى أحس به إحساساً باطنياً ! !

إنه لا بد لمن يتناول مثل هذا الموضوع أن يفصل القول ، فلا يجمله ، لأنه بلا شك موضوع جليل ، والكلام فيه سلوك فى مجهل غامض يحمل على الإبانة والإيضاح ، وإلا كان الكلام فيه على هذا تقصيراً لا ينفع ، ويكون أنفع منه أن يترجم لنا الأستاذ كلام النقاد الأوربيين الذين مارسوا هذا العمل وأفرغوا له أوقاتهم واستوعبوا الأصول التى يسار عليها فى معالجته ، وكذلك تتم خدمته للأدب والأدباء ...

أبو العباس السفاح

كنت أحب أن أستوعب فى هذا التعليق كل الرأى الذى عرض لى فى أمر أبى العباس السفاح أمير المؤمنين ، ولكنى رأيته قد خرج عن أن يكون من مادة هذا الباب، فلذلك اقتصرت على أشياء أرجو أن تعين الأستاذ العبادى فى تحقيقه الذى بدأه ، وعسى أن يكون فى هذا القول بعض الصواب الذى يسعى إليه .

فمن ذلك أن أبا العباس السفاح ، وأبا جعفر المنصور أخوان وليا الخلافة العباسية لأول أمرها ؛ وكان أبو العباس أصغر من المنصور بعشر سنين ، وأن اسم أبى العباس وأبى جعفر فى نسبهما هو « عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » ، فأبو العباس هو « عبد الله الأصغر » ، وأبو جعفر هو « عبد الله الأكبر » . فإذا كان ذلك كذلك ، وأبو جعفر قد لقب بالمنصور وأن الذى لقبه بذلك أبوه فيما نعلم ، فلا غرو أن يكون أبو العباس كذلك ملقباً ، وأن يكون أبوه قد لقبه كما لقب أخاه

وإذا كان أبو العباس « عبد الله » هو الأصغر فالتلقيب هو أولى به للتفريق بينه وبين أخيه أبى جعفر « عبد الله » وهو الأكبر الذى ولد أولاً وسمى « عبد الله » من قبله . ويؤكد أمر هذا التلقيب سيرورته بعد فى خلفاء بنى العباس جميعاً إلى انقضاء دولتهم ، فكأنه كان من « تقاليدهم » وتعاليمهم

وأيضاً فإنه قد وردَ فى الحديث عن أبى سعيد الخدْرىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج منا رجل فى انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يقال له (السفاح) يكون عطاؤه للمال حثياً » ، وأئمة الحديث لا يصرفون هذا الاسم إلى أبى العباس ، وإنما هو نبوءة كبقية النبوءات التى وردت فى القرآن الكريم والحديث النبوى لا يدرى تأويلها إلا أن تكون ... ؛ ولكن الدعوة العباسية فيما يظهر قد جمعت بين هذا الحديث وأحاديث أخر هى من باب النبوءات أيضاً وجعلت منها حديثاً اتخذته فى الدعوة إلى إقامة الخلافة فى بنى العباس ، فكانوا يروون للناس عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « والله

لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لأدال الله من بنى أمية . ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدى » ، وهم الخلفاء العباسيون الثلاثة على التتابع. ولا شك فى أن هذا كان قبل قيام الدعوة بالفتح بزمن طويل . فلعل الإمام « محمد بن على » قد لقب ولديه بهذين اللقبين تفرقة بينهما ، وتفاؤلاً بالذى يروون فى أحاديث الدعوة العباسية

وإذا كان ذلك كذلك فمعنى اللقب إذن ليس من « سفح الدم » ـ وهو بهذا المعنى مجاز مقصور لغرض بعينه ـ ولكنه من الكرم والعطاء والبذل كما ورد فى الحديث الذى سقناه آنفاً من أن « عطاء السفاح للمال حثياً » لأنه لا يصح فى العقل أن يلقب أحد ولده بهذه المذمة القبيحة وهو ينصبه للناس خليفة ، وقد لقب أخوه من قبل بالمنصور . نعم قد سمت العرب فى جاهليتها بالأسماء المنكرة ، ولكن الإسلام جاء فحسم ذلك كله ، ولم يبق من التلقيب والتسمية بالمنكر من الألفاظ شىء فى أكثر البادية العربية ، فكيف فى الحضر ثم فى أعظم بيوت الحضر ، وهو بيت العباس ؟ وقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة فهو قد غير أسماء كثير من الوافدين عليه من أصحابه « كزحم بن معبد » فسماه بشيراً ، وجميلة امرأة عمر بن الخطاب وكان اسمها « عاصية » وخلق كثير

وعلى هذا الأصل نرى أن الناس فى صدر الإسلام سموا « بالسفاح » فمنهم : السفاح بن مطر الشيبانى ، وهو ممن ولد فى النصف الثانى من المائة الأولى للهجرة وكان من أصحاب الحديث ؛ والسفاح أخو أبى سلمة بن عبد الرحمن الزبيدى لأمه وهو من التابعين ، وقد روى عن أبى هريرة وغيرهما . ولا شك أن التسمية هنا منصرفة إلى المدح لا إلى الذم ؛ فصفة أبى العباس السفاح هى إلى العطاء والكرم كما ذهب الأستاذ العبادى أولاً ، ثم رجع عنه حين تعقبه الأستاذ أحمد أمين

أما النص الذى نقله الأستاذ عن اليعقوبى من أنه قال : « عبد الله بن على الأصغر وهو السفاح » ، وهو عم أبى العباس والمنصور ، فإن أصله منقول من ابن سعد فى طبقاته حين ذكر أولاد على بن عبد الله بن عباس فقال : « عبد الله بن على الأكبر... وعبد الله بن على الأصغر السفاح الذى خرج بالشام » ، فهذا هو الأصل ولا يرى فيه إرادة التلقيب كالذى يرى من نص اليعقوبى، وإنما هى صفة كالسفاك والقتال . نعم ، وأنا لا أدرى كيف ادعى الأستاذ العبادى أنه اشتهر بذلك فانتقلت هذه الصفة إلى أبى العباس أمير المؤمنين ، فإن الطبرى وأئمة المؤرخين قد ذكروا عبد الله ابن على عم أبى العباس وأبى جعفر فى أكثر من خمسين موضعاً ولم يلقبه أحدهم بهذا اللقب ، فكيف يمكن أن ندعى أنه اشتهر به حتى كان من جراء هذه الشهرة أن اختلط على الناس وعلى الأدباء وعلى فلان وفلان كالجاحظ وابن قتيبة فوضعوا صفة « عبد الله ابن على » صفة « لعبد الله بن محمد » على قرب العهد . وكيف جاز أن يقع فى ذلك الجاحظ فى روايته، وهو أدق العلماء رواية، وهو الذى رد أكثر رواية ابن الهيثم وابن الكلبى وغيرهما من أصحاب الأخبار؟

وخبره الذى رواه وذكر فيه السفاح فى البيان والتبيين ج ١ ص ٩٣ أخبره به « ابراهيم بن السندى » وقد قال فيه ج ١ ص ٣٢٦

« وكان ابراهيم بن السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف ما فى كتب الهيثم بن عدى وابن الكلبى ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور ، وكان عبد الله بن على وداود بن على يعدلان بأمة من الأمم. ومن مواليهم ابراهيم ونصر ابنا السندى، فأما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث ، وكان لا يعدو حديث ابن الكلبى والهيثم، وأما ابراهيم فإنه كان رجلاً لا نظير له . . . وكان ... وكان ... من رؤساء المتكلمين وعالماً برجال الدعوة وكان أحفظ الناس لما سمع وأقلهم نوماً وأصبرهم على السهر

فرواية الجاحظ فيما نرى أقوم من رواية غيره ، وهى دليل على صحة الصفة التى وصف بها أبو العباس أمير المؤمنين ؛ والجاحظ قد أدرك صدر الدولة العباسية ، ولم يكن بين مولده ووفاة أبى العباس السفاح كبير دهر حتى يكون ممن يختلط عليه الحق فى مثل هذا الأمر، وبخاصة وهو يروى ما يروى عن الثقات فى معرفة أخبار رجال الدولة

أما سكوت الطبرى وغيره ـ من متأخرى المؤرخين عن صدر الدولة العباسية ـ فليس بعد دليلاً على بطلان هذا اللقب. وإن دل على شىء فربما دل على أنهم جانبوه وتباعدوا عنه وتركوه لما كان قد انتشر فى عصرهم من معنى السفاح على أنه السفاك للدماء، وخفاء معنى هذا اللفظ الأول وهو الكريم الباذل الفياض الذى يكون عطاؤه للمال حثياً

هذه كلمة صغيرة إلى الأستاذ العبادى أرجو أن أكون قد بلغت بها بعض رضاه فى التعقيب على رأيه الذى انتهى إليه ووقف عنده . ولعله يعود إلى الذى كتبه فإن له بالعلم بصيرة نافذة مسددة إن شاء الله .

محمود محمد شاكر

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس هيرشفلد فرع القاهرة بعمارة رقم ٤٦ شارع الملكة نازلي تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع [illegible] والأمراض والشذوذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وضعف الشباب [illegible] . ويعالج بصفة خاصة فى زيادة الحساسية طبقاً لأحدث الطرق العلمية
والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للتعميم [illegible]
[illegible] على مجموعة الأستاذ البيولوجية المحتوية على ١٤١ [illegible] والتى يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش